مدينة الأطفال

نقلا عن مجلة " وورلد دايجست " الانجليزية

أخطر وأكثر المجرمين عددا فى الولايات المتحدة هم من الأطفال المراهقين ، وهذا ما أثبته الاحصائيات الأخيرة التى روعت الهيئات الحاكمة وجعلتها فى حيرة من أمر هـذه المشكلة المعقدة ، ولكن كاهنا كاثوليكيا طيب القلب بصيرا بالأمور تقدم لحل هذه العقدة وهو الأب أدوار . ج. فلاناجان الذى ابتدع فكرة " مدينة الأطفال " فأفلح فيما فشلت فيه الحكومة .

هناك فى أغنى بقعة من بقاع الأرض يقف الأب فلاناجان ليقذف فى وجه الشعب الغافل بتلك الحقيقة المؤلمة ، وهى أن عشرة ملايين من أطفال الولايات المتحدة يعيشون دون المستوى العادى للانسان ، لا يفكر فيهم أحد ، ولا يعمل أحد من أجلهم شيئا ، ويهيمون على وجوههم فى الازقة والشوارع الكبيرة كالكلاب الضالة مهملين ، يائسين ، جائعين . إن العدالة الاجتماعية لتضع على أكتافنا نحن ، لا أكتافهم هم ، تبعة تردى معظمهم فى هوة الإجرام ، هكذا كان يتحدث الأب الى جميع الطبقات والأسى يقطع قلبه ، إن أفكاره ليست خيالية بل هى عصارة تجارب عشرين عاما قضاها فى خلق رجال صالحين . ولقد عالج أكثر من أربعة آلاف حالة علاجا لم يصبه الفشل فى واحدة منها .

وفى خلال هـذه العشرين عاما تمكن من أن يستأجر منزلا أطعم فيه كل من لاذ به من الأحداث المتشردين ، ووزع عليهم الملابس التى جمعها من أجلهم ، وأضافهم كأحسن ما استطاع ، حتى لقد كان المكان يكتظ كل مساء بأولئك الذين لا يؤويهم بيت ولا يشرق فى نفوسهم أمل ، وانما انبعثت فى الكاهن هذه الروح الرحيمة منذ قصده فى احدى الليالى صبى منهوك القوى ، موزع النفس ، لاهث الأنفاس ، ممزق الثياب ، مشعث الشعر ، شكا اليه جوعه المبرح وطلب منه أن يستضيفه ، فأجاب سؤله .

ومن ذلك الوقت والكاهن يقف حياته على خدمة الطفولة المشردة ، وكان كلما لمع فى فكره خاطر معين قال لنفسه فى تأثر ظاهر "عند ما أرسل النظر الى ذلك الوجه البارد المتجهم أشعر بالخطأ الذى وقعت فيه ، فإنى لكى أنقذ الرجال يتعين على أن أبدأ بالأطفال " .

أما الآن فعلى بعد عشرة أميال من غرب أوماها تقوم مدينة كبيرة يجد فيها مئات الأطفال كل مطالب الحياة الهانئة المستقرة ، " من عابر " صحية للنوم وملاعب واسعة للرياضة وورشة للنجارة وأمكنة للغسل وأحواض للسباحة ومزرعة زاخرة وبحيرة مليئة بشتى صنوف الأسماك ، الى مدرسة أولية يشرف عليها المجلس المحلى وأخرى عليا تعترف بها الحكومة الى مكتب للبريد ومستشفى خاص .

والمشروع أشبه الأشياء بالمدن فى تخطيطه وتنسيقه ، وهو بحق مدينة أطفال ، تدير أمورها كلها هيئة حاكمة فريدة فى نوعها ، فمن الأطفال أنفسهم يعين الحاكم العام وأعضاء اللجان ومدير الأمن ومحررو صحيفتهم الخاصة وفرقة الموسيقى والمغنون .

والأب فلاناجان هذا رجل طويل القامة نحيف البدن ، أزرق العينين ساهمهما ، دمث الطباع ، دقيق الفهم ، شديد الحساسية ، له سحر مستفيض وجاذبية لا تقاوم ، والأطفال يرونه أبا وقديسا فى وقت واحد لأنه يحبهم من كل قلبه . ويعرفهم واحدا واحدا أكثر مما يعرف بعضهم بعضا .

إن من يرى هؤلاء الملائكة الصغار تتلألأ فى وجوههم أنوار الصحة والمرح والرجولة ليسائل نفسه فى لهفة الحائر عن البقاع التى قذفت بهم الى ذلك المكان الانسانى البديع . لأنه لا يرى إلا عجبا . فهذا طفل تعود به ذاكرته الى ما خلف وراءه من آلام جسام قاساها بعد فقد أبويه وانتهت به الى بيت سيدة هاج خيالها يوما ما فانقضت عليه بمدية كانت بيدها . وذاك طفل آخر استاقه القدر إلى إحدى عصابات الصيارف فبدأ حياته الجديدة باختلاس ما يربى على مائة دولار من خزانة مصرف . وقد كانت ضآلة جسمه وخفة حركاته السبب فى أن الحراس لم يحس به أحد منهم . وها كم فتيين يافعين قد قتلا أبويهما . ارتكب أحدهما فعلته إنقاذا لأمه من ركل أبيه لها بقدمه ، أما الآخر فقد كان يحب أمه وشقيقته الى درجة العبادة ، غير أن شعوره نحو أبيه قد فتر بعد إذ هجر أمه وتزوج من غيرها . وحدث أن طلب من أبيه أن يزورهما و إياه فوعده بذلك . وناهيك بما بذل الجميع قبل الموعد المحدد من جهود فى إعداد الغداء ، وتنظيف المنزل وترتيب الأثاث . وعند ما أزف الوقت جلس ثلاثتهم فى النافذة يرسلون نظراتهم الغامضة فى وجه كل عابر . وفى كل لحظة كانت الأم تنظر الى

الساعة بين القلق ، بينما كانت فتاتها توقد الشموع التى وضعتها على المائدة ثم لا تلبث أن تطفئها قبل أن تأتى ألسنة النار على آخرها . وإذ ساورهم اليأس انطلقت الأم متحية مرتاعة بينما كانت شهقات البنت تكاد تمزق صدرها . فأنشأ الفتى يكفكف دموعهما ، ثم دعاهما لمصاحبته الى إحدى دور السينما . وعند ما هموا بالخروج تركوا بطاقة يعينون فيها المكان الذى سيقضون فيه سهرتهم . وعند عودتهم خاب رجاؤهم منه ، فما كان من الصبى إلا أن انسل الى خارج البيت متأبطا بندقيته . ومن وراء نافذة الصالون ابتدر أباه بقوله " هل حضرت الينا يا أبتاه كما وعدتنا " فالتفت اليه مجيبا فى فتور: "بالجحيم . كلا"، فانقض عليه ابنه ببندقيته وأرداه قتيلا ثم عاد أدراجه الى البيت لينتظر مصيره المجهول بعد أن خطا الخطوة الأولى فى عالم الجريمة .

دار الزمن دورة سريعة وكان القاضى الذى نظرت أمامه القضية على وشك النطق بحكم الإدانة حين نهض من بين المتفرجين الأب فلاناجان صائحا فى صوت جهورى نبيل " هذه قضية غلام يحب أمه. وهى مقعدة بحيث يستعصى حملها على غلام فى مثل سنه . إن معاملتنا السيئة للأطفال هى الدافع القاهر الذى يدفعهم الى الهاوية . وعلى ذلك فالمجرم الحقيق ليس هذا الغلام البرئ الماثل أمامكم " ثم بسط للقاضى فكرة مدينة الأطفال وقص أنباء بعض الفتيان الذين درس مشاكلهم أو انتشلهم من الحضيض . وكان من السهل عليه أن يعتمد على ذاكرته فى سرد تاريخ كل طفل ... من كان ... ومن هو الآن . وسأل عن هذا الطفل المتهم وطلب تسليمه اليه واعدا بأن يصير منه مواطنا محترما . وقد كان لمرافعته الحارة أثر عميق فى نفس الأم فبكت بكاء حارا مسموعا كما فعل الكثيرون ممن حضروا الجلسة حتى ان القاضى لم يتمكن من وقف نشيجهم لأنه عجز هو أيضا عن حبس شعوره، وعلى الفور أصدر القاضى حكمه بتسليم الطفل الى الأب فلاناجان الذى لايدرى أحد على وجه التحديد كم من الرجال المثقفين أسدى اليهم الخدمات الجليلة . وانه مع ذلك ليتواضع فيقول للذين يطرون جهاده الانسانى ليس ماتصفوننى به من جليل الأوصاف الا خرافة ، فانى لم أصنع بعد شيئا يذكر .

المطبعة العصرية ١٩٢٠ ل - ١٩٣٩ ل - ٣٥٠٠